القديس فرنسيس كسفاريوس

بقلم الاب جبرائيل عقيقي اليسوعي

الدعوة

عجب أمر مواطنه ذلك الشريف الزاهد اغناطيوس دي لويولا ! ما حمله أن يقاسمه داره ويلزم صحبته رغم ما يلقى من نفوره ويرى من ازدرائه برئاسة مظهره .

ما أشدّ ما بينهما من الاختلاف وما بينهما من الاتفاق ؛ كلاهما ذو أصل شريف ، وكلاهما طالبان ، جمعهما في جامعة باريس طلب العلم كما جمعتهما الفاقة ، غير أنّ اغناطيوس راضٍ في فقره ، يخدم الطلاب ويستجدي قوت يومه مسروراً ؛ وفرنسيس ثائر على ما نكبت به أسرته من الفقر ، يحاول المحافظة مع غزة نفسه وشرف أصله .

يدعوه اغناطيوس الى الزهد في الدنيا وهو راغب فيها ، طامع من كرامتها ، مولع في مجالس أهلها . يقول له : « يا فرنسيس ، ما يفيد الانسان ربحُ الدنيا اذا خسر الأخرى ؟ » ويرى فيه النفس الكبيرة والرجل الكفيّ لعظائم الأمور ؛ وما زال به حتى أنس إليه ؛ وعرف فرنسيس ما عند رفيقه ومواطنه دي لويولا من الفهم والحزم والإقدام ، مع الخبرة في أمور الدنيا والدين ، فوثق به وتتلمذ له ، ومارس رياضته أياماً كان في خلالها يميت نفسه بمختلف ضروب الإماتة . لبث يولس الرسول قبل اهتدائه ثلاثة ايام لا يأكل ولا يشرب ، وصام فرنسيس أربعة ايام لا أكلاً ولا شرباً ، فانجلت له في تلك الايام ، على أنوار النعمة أسرار الحياة وشعر بما في الاتصال بالله من نشوة الفرح وبما في خدمته من الشرف والسعادة فانضمّ الى مرشده القديس اغناطيوس مؤسس الجمعية اليسوعية وكان هو وأربعة آخرون نواة دوحتها الوارفة ، يوم نذروا في معبد مونمارتر النذور الثلاثة ١٥ آب ١٥٣٤ وأضافوا اليها نذر الطاعة

للحب الاعظم ، على أن يوجههم الى أيّ صقع من أصقاع الارض ، بين الضالّين والكفار وغيرهم .

وكانت الهند حينئذ أرحب الاصقاع وأحوجها الى من ينادون فيها بالانجيل ، وقد صارت محط الانظار منذ نزل فيها الاسبان والبرتغاليون ، وخالةً وتجاراً وجنوداً . فطلب ملك البرتغال من اغناطيوس ان يرسل الى تلك الديار اثنين من جمعيته وشاءت العناية ان يكون فرنسيس اول رسول منها الى الشرق .

رسول الهند

فرنسيس سفير الجبر الروماني في الشرق الاقصى ، يسافر من لشبونه في ٧ نيسان ١٥٤١ مع نائب الملك ، ولا خادم معه ولا ثوب يميزه ، بل كان هو الخادم لجميع المسافرين . فيصل بعد ثلاثة عشر شهراً الى جاوه عاصمة امبراطورية البرتغال ، فتقصد الجالية الى الميناء لتحتفي بقدومه فاذا هو قد ذهب الى المستشفى ، يؤاسي المرضى ويمنح الاسرار . ثم هو يمضي الى السجون ليُغنى بين تكدّس فيها من العبيد والسود والهنود ويُقبل على خدمة المجذومين في معتقلاتهم لا يرهب العدوى ولا ينفر من مخالطة البؤس والشقاء . غنيٌّ بنفسه موشّح بقداسته ، يفعل مظاهره في النفوس ما لا تفعله خطب أبلغ الواعظين .

موانئ الهند ومدنها وجزائر محيطها ما أكثرها من جاوه الى ترافنكور ، الى مليابور الى ملقا وجزائر الصيادين ، الى مور ومولوك وسيلان وغيرها ، طاف فيها جميعاً ، وبشّر وعمّد عشرات الالوف من بينها حتى كانت يده تخدر من كثرة التعميد . وقد أضرم نار العبادة في قلوب الجميع ، فمات الالوف منهم شهداء حبًّا لله كما كان الالوف يموتون في بداية النصرانية وعهد الرومان فرحين مغتبطين .

من أحصى كل من هدى الى معرفة الله في كل مركب سافر فيه وكل بلد دخله من مغرب الشمس الى مشرقها ؟ لقد ردّ في شهر واحد في ترافنكور من النفوس ما لم يردّ مثله جميع مرسلي البرتغال في ثلاثين عاماً .

كان يوجه جلّ جهده الى الفقراء واليائسين والمنبوذين وكان له في ارتدادهم تعزية وفرح كثير ، أما اغنياء المستعمرين من برتغاليين وغيرهم فقد كان يحزنه بعدهم

عن الروح المسيحي فيما كانوا يعاملون به اهل تلك الديار المساكين، من العنف والظلم والغش ، إذ يبادلونهم الجواهر والذهب والعاج بأحقر صنوف النسيج والسلع الزجاجية ، فكان يوبّخهم ويشكوهم الى الحكام ليخففوا من جشعهم وشغفهم بالمال .

رسول اليابان

جاءه وهو في ملقا تاجر ياباني اسمه أنجر ، يطلب منه أن يزيل ما في نفسه من الوساوس والأوهام ، فوعده القديس بالشفاء إن هو آمن واعتمد ، فرضي الرجل ، فأرسله الى مدرسة الآباء اليسوعيين في جاوه ليتعلم هو وخادمان له التعليم المسيحي، ثم عمّده هو وخادميه فشفي التاجر وزال ما كان به من القلق، وتاق من نشوة فرحه ان يشرك بسعادته كل اهل بلاده ، فجعل يرغب الاب المحسن اليه في الذهاب الى اليابان ويذكر له ما عند أهلها من لين الطباع وحسن الاخلاق وأنّ عندهم ديورة وصوامع يختلفون اليها ويختلون فيها ، وان فيهم تخشناً وتعففاً من الحياة ، فمالت نفسه الى ذلك وشعر أنّ الله يدعوه إلى القيام بهذه الرسالة ؛ غير أنّ اليابان كانت حينئذ بركاناً هائجاً من الثورة بعد خلع الميكادو وانتشار الفساد والقتل بين أفرادها وأحزابها وتعصب رجال الدين فيها . . .

هذه الاخطار على شدّتها لم تمنع الرسول من المضيّ الى هاتيك الديار ، فركب البحر اليها في ٢٤ حزيران ١٥٤٩ ، يصحبه تلميذه أنجر ونزل في داره بمدينة كاغوشيما عاصمة ساكسوما ، ولما علم ملكها بقدومه اليها رحّب به وسرّ بما قدم له من هدايا ، سيما صورة العذراء وابنها . فاستطاع القديس أن يدخل هو وترجمانه صاحبه منازل اليابانيين ويتحل بكهنة بوذا في كاغوشيما وبوتمو وياماغوش ويبشّر في كل مكان فتسمع منه بلاد الشمس المشرقة ، لاول مرة اسم يسوع المسيح ؛ ويأتي فيها بالمعجزات فينقاد لتعليمه ملوك ورؤساء وجند وعامة وكهنة أصنام ، آمنوا جميعاً واعتمدوا ؛ وقد ثبتوا في ايمانهم رغم ما لقوا في سبيله من اضطهاد ؛ وظل بنوهم من بعدهم متمسكين بعبادة المسيح ثلاثة أجيال وهم منقطعون عن العالم المسيحي الانقطاع كله ، كما ظلّ ذكر

رسولهم راسخاً في أذهانهم وحبّه في قلوبهم .

وكان القديس مشتاقاً ان يدخل كيوتو عاصمة اليابان ومركز الثقافة فيها ، ويتصل بجامعاتها الخمس وطلابها أربعة الآلاف ، فيلقي في ذلك الحقل الخصيب بذار الخلاص ؛ غير انه لمّا دخلها في كانون الثاني ١٥٥١ كانت الثورة قد اجتاحتها فهدّمت قصورها ومعابدها وتركتها طعمة للنار والخراب. فلم يبقَ له الّا أن يوجّه نظره نحو الصّين. فعاد الى الهند ونظّم فيها شؤون الآباء والرسالات وهمّ بالسفر .

وانه ليعزم عليه إذ قامت في سبيله وفي سبيل الوصول الى الصين مضاعب وأخطار لا يتوهّمها الفكر ولا يصبر على مضضها الّا قديس مثله : فمن والٍ عاتٍ الى ملّاحين قساة الى بحر عنيد ، الى أصدقاء مُشفقين الى كل ما يسمع من الأخبار عن تعصّب الصينيين وعن فتكهم بكل من تحدّثه نفسه أن يطأ أرضهم من الاجانب. تحالف كل هؤلاء عليه فلم يثنوا عزمه عن قصده، فسافر وانتهى بعد احتمال كل ما هدّدوه به من الاهوال ووصل الى مدخل الصين الى جزيرة سنسيناتو قبالة كانتون .

لقد بلغ الغاية ، انما خانته الصحة ، فوهن جسده ووهت قواه ، فانطرح على الشاطئ في كوخ حقير تخفق فيه الرياح من كل جانب ، وأخذ يعالج سكرات الموت وعيناه تنظران الى تلك الارض التي أحبها ، والشمس تطلع عليها وتغيب فيودّ لو تكون روحه بين أشعتها فيغمرها بحبه كما تغمرها بنورها.

إحملي يا شمس وجدي وانثري في ثنايا النور طيب المحمل
أشتهي أن أملأ الصين جوى هل سوى النور له من رسل
خبّري كلّ بنيها أنّهم من ضلوعي في المحلّ الأفضل
واذكري يا شمس ما أنت سوى رمز روحي صورة الله العلي
ليس وجدي ذا حدود ينتهي إنّه من أكنات الأزل

بهذه العواطف فاضت نفس روح رسول الهند ابن القديس اغناطيوس في اليوم الثاني من كانون الثاني ١٥٥٢ وهو وحيد لا أحد حوله الّا صليبه مضموماً الى صدره وعمره ست وأربعون سنة . فانطفأت بموته تلك الشعلة الزكيّة ، بعد أن أضاءت المشرق وأشعلت حرائق من الحب الإلهي في كل بقعة من بقاعه.

من ذا يردُّ النـارَ بعد خمودها ضَرَمًا وقـد دفئت بها جُلَّاسُها

هوذا القديس فرنسيس كسفاريوس الرسول الذي حقّق ما كان يريده مؤسس جمعية يسوع من ابنائه؛ يريد ان يكون اليسوعيّ منهم راهباً متأمّلاً وعاملاً متأمّلاً، يجمع بين الكمالين كمال الحياة الرهبانية المتأملة وكمال الحياة الرهبانية العاملة؛ فلا يكون للعمل أن يفقده التأمل والاتحاد بالله ولا للتأمل والاتحاد بالله أن يفقده حسن السياسة وإتقان الادارة ذلك ما قام به رسول الهند خير قيام : يعتزل حيناً في منسك من المناسك يناجي فيه الله ويزداد له حبًّا بل يذوب به وجدًا حتى يقول: « حسبي يا ربّ حسبي .» ثم لا يلبث ان يخرج من عزلته فيصحب الجنود إلى ساحات الحرب ويزور المرضى والسجناء ويدبّر الرسالات ويرشد المرسلين . وأينما حلّ بذر العجائب والمعجزات برًّا وبحرًا ، يتعب ويتعذّب ولا يعبأ بالتعب ولا بالعذاب ، فهابته الطبيعة جميعها : البحر الهائج والملوك الطغاة والخطأة المزمنون والمرض والموت نفسه فسكّن هياجهم وأنقذ الفرائس من بين براثنهم . كان قوّةً فوق الطبيعة تتغلّب على جميع المصاعب والمخاطر الطبيعية .

فحقّ للكنيسة ان تعظّم على الدهر فضائله وحقّ للاجيال أن تحفظ ذكره وتحييه في مطلع كل تذكار مئوي كما تحييه في هذا التذكار المئوي الرابع ٢ ك٢ ١٩٥٢ ونقول له :

وزّعت روحك كالبعير على النفوس لكي تطيب الى المدى انفاسها